الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

إنَّ روابط الإنسان بمعاصريه وعلاقته بهم هي قطعة من حياته، وجزء من شخصيته، ولا مراء في أن التحدث عنها يلقي جانبًا من الضوء على تاريخه، لذلك رأيتُ أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه، سواء كانوا من أصدقائه وأنصاره، أو مخالفيه، أو من تلاميذه وحواريه.

أصدقاؤه الأقربون

محمد فريد

إذ ا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الأقربون كان في طليعتهم المغفور له «محمد بك فريد»، فهو زميله المخلص، وصديقه الوفي، وعضده الأكبر في بعث الحركة الوطنية، لازمه وأيده في جهاده، وبذل له ما بذل من العون الأدبي والمادي، وأمده بماله، وظل وفيًّا له طول حياته، ثم حمل الراية بعد وفاته، فكان خير خلف لأعظم سلف.

رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل إلى فريد بك على ما بينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه، ويضحي بنفسه من أجله، وتلك دلائل الإخلاص الحقيقي، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلبيهما الكبيرين من الوطنية الصادقة، والعواطف النبيلة السامية، وهي وإن لم تنشر من قبل، ولم تكن معدة للنشر، ولكنها صارت قطعة من تاريخ الزعيمين العظيمين، لذلك رأيتُ أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنكجراف في أول كتاب عثرت عليه أرسله إليه من فيينا بتاريخ (٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦م)، وهو

يدل على الود القديم بينهما، وفيه أفضى إليه بما بذل في ألمانيا والنمسا من الجهود لتعريف الرأي العام الأوربي بالقضية الوطنية، وقد أشار إليه المغفور له محمد بك فريد في خطبته في تأبين الفقيد، واقتبس بعض فقرات منه (انظر: ص٢٨٥).

محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية
١٨٦٧ - ١٩١٩

والكتاب الثاني أرسله إليه من بودابست في (٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦م) قال فيه:

«أخي الفريد حفظه الله:

بعد التحية والتسليم، والإعراب عن شوق عظيم، لا بد أنك استلمت كل ما أرسلت إليك وطالعت صدى ما علمت، وعلمت بكل ما جرى وكان، ولا بد أنك سررت وفرحت، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبًّا لمصر التعيسة وإخلاصًا رضيت عن روح لا تقل عنها حبًّا للوطن وإخلاصًا، وإخالك تفكر كثيرًا فيَّ، وتود

لو تكون معي تطوف البلدان مناديًا بنصرة المظلوم رافعًا صوتك ضد عدو الوطن الأسيف».

وقد أشار «فريد بك» إلى هذا الخطاب أيضًا في خطبته سالفة الذكر، واقتبس منه فقرات أخرى (ص٢٨٦).

وكتب إليه ضمن خطاب له من الأستانة (إستانبول) في (٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦م) يقول:

«كنت أحس بواجب مراسلتك، ويسهل شوقي إليك قيامي بهذا الواجب نحوك، وأتلذذ حقًّا لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز؛ أي أشرف وأجل إحساس عند الإنسان».

وكتب إليه من باريس في (١٩ يولية ١٨٩٨م) كتابًا قال فيه (نشرنا صورته ص٣٧٨):

«أخي الأعز حرسه الله:

بعد تقبيل وجنتيك وإهدائك أعطر السلام، وصلني هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم، وكنت في شغفٍ شديد لاستلامه؛ لغياب أخبارك عني ثلاثة أيام، وليس ذلك بالزمن القليل.

لقد أدهشني في كتابك شكرك لي على مبادرتي بإجابة طلبك. إن هذا الشكر من غيرك جميل وواجب؛ ولكنه منك غريب وعجيب، فما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالي، ومالي مالك، وحياتي حياتك، وحياتك حياتي، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت، فروحي تناجي روحك بالود والإخلاص في كل لحظة وفي كل آن. دمت لي أخًا وفيًّا صادقًا، ودمت معي خادمين صادقين للوطن المحبوب».

وختم الخطاب بقوله:

«اكتب لي باكرًا من فيشى وأطل كتابك، واذهب يوم الخميس إلى كوك قبل الظهر تجد مني كتابًا أكتبه إليك باكرًا ليكون فيه وداعك، وبعض أمور أريد منك عملها في مصر، تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثاني».

مصطفى كامل

وكتب إليه من باريس في (٢٢ يولية سنة ١٨٩٨م) كتابًا قال فيه (نشرنا صورته ص٣٧٩):

«أخي الأعز حرسه الله:

أُقبِّل وجنتيك ألفًا، وأهديك سلامًا عاطرًا، وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين[1]، إنه سميع مجيب».

إلى أن قال:

«أرجوك أن ترسل لي عدد المؤيد المؤرخ (٩ يناير) من هذه السنة، وهو المشتمل على الخطبة التي ألقتيها على شبيبة المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديوي؛ لأني في حاجة إلى ترجمتها ووضعها مع المجموعة.

سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل، ولا تنس العائلة، أرسل سلامي لكل أفرادها، دمت ألف مرة لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

(١) هو المرحوم «عبد الله فريد» نجله الأول. وقد توفي وله من العمر سنتان. أمَّا نجله الثاني فهو الشاب النجيب الأستاذ «عبد الخالق فريد» وكيل النيابة الآن (١٩٥٠م) بارك الله فيه، وهو الذي تسلمنا منه رسائل مصطفى كامل إلى والده المغفور له محمد بك فريد، كما استودعنا مراسلاته ومذكراته، فله مني جزيل الشكر.

«قبِّل لي وجنات الشقيق إبراهيم بك[١]، وسلم لي على الفاضل حسن أفندي عبد الرازق[٢]، واسأله أن يبلغ سلامي العاطر لوالده العزيز[٣].

وإذا قابلت شوقي بك[٤] قبله مرتين، وقل له أن يرسل لي ما طبع من ديوانه مع صورته، وأعطه عنواني».

وقال في ختام خطاب إليه من باريس في (١٠ أغسطس سنة ١٨٩٨م):

«أقبلك في الختام ألف قُبلة، وأرجوك ألا تحرمني من أخبارك، وأن تعرفني عند وصول هذا إليك، دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك».

مصطفى كامل

وقال في خطابٍ آخر من باريس في (١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨م)[٥]:

«وغاية رجائي من الله -إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا- أن يحفظ لي ودك الصادق، وحبك الطاهر، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل».

مصطفى كامل

وقال ضمن خطاب إليه من باريس في (٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨م):

---

(١) المرحوم إبراهيم بك فريد.

(٢) المرحوم حسن باشا عبد الرازق، وكان محاميًا بمكتب محمد بك فريد.

(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير.

(٤) أمير الشعراء، وكان صديقًا حميمًا للفقيد.

(٥) نشرنا صورته ص١٣٤.

«لك مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان، فحقًّا أنت الأخ الصادق الذي يضحي نفسه في محبة إخوانه، فدم لي يا مثال الوفاء، واعتقد أبد الدهر أن لك فيَّ أصدق الناس كافة، وأوفاهم إليك، فحياتي وروحي لك بعد الوطن العزيز».

وختم هذا الخطاب بقوله:

«سلامي العاطر لأخيك العزيز، ودم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

وقال ضمن خطاب له من باريس في (٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦م)[١]:

«أخي الأعز فريد بك:

ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد استسلمت خطاباتك، وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية، وأن ودك الصادق، وإخاءك الطاهر، ووطنيتك العالية، لما يكفيني في الحياة نعمة ونعيمًا وسعادة وسعودًا».

وقال في خطاب من نابولي في (٢٩ يونية سنة ١٩٠٧م):

«إني لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك في خدمة المبدأ الذي وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وحسبي أن أقول: إنك خير سلوى لي في هذه الحياة التي كثرت أتعابي وهمومي فيها، فكنت الأخ الممتاز والعون في الشدائد».

هذه الرسائل التي تفيض إخلاصًا وحنانًا ونورًا، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين، وهي تصور لنا مقدار حبه لفريد بك، ومبلغ ما كان يجمع بينهما من الروابط

(١) نشرنا صورته بالزنكجراف ص٢٣٥.

الأخوية والوطنية التي دامت بين الصديقين طوال سني الجهاد، وجعلت منهما البطلين العظيمين اللذين بعثا في نفوس الجيل روح الوطنية والإخلاص.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ١٩ يولية سنة ١٨٩٨م)

باريس في ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٨

[illegible]

[illegible] وتمسكين الله و [illegible] سعدا عاطرا وتهاني لكم
الصحة الدائمة والسرور الكامل وأرجو له ان تبركم شفاء عزيزكم
المصون وسعادة عيلكم الأنيسة [illegible] سليم محبب
سأعمل بأمركم وأقابل نوفل فتيش احسن مقابلة وان شاء
ارجئ السفر الى عيد الجلوس يوم ٩ سبتمبر سنة
السنة وحينما استقل عن الجريدة الى الكتابة سنة
الباريس يوم احتفال جميع طبقات الجمهور لأني وطنيا
لزمنا ودستور الجمهورية.

سأكتب لكم كل أسبوع مرتين على الأقل وأرجو أن تبعثوا لي
ايضا سنة من نمرة الراية واجزاء من ديوان حسن
واجزاء [illegible] وقت الفراغ لاحتفظ بالكل

قبل لي وجبت الشفيعة بين يدي [illegible]

وسلم لي على الشيخ حمدان عبد الرازق وبلغوا له
سلامي الصادق والله الخالق

اذا قابلت شوقي بك قبلي على مرتين وقل له يرسل
لي ما طبع من ديوانه مع صورته وانظم عنوان

[illegible] 9 Rue Bayard..

لطيف باشا سليم

لطيف باشا سليم

من أعلام الحركة الوطنية، وهو نجل المرحوم «سليم باشا الحجازي» أحد قواد الجيش المصري في عهد محمد علي، تخرج في مدرسة أركان الحرب، وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية، ثم تولى مهمة التدريس في المدارس الحربية، فكان خير معلم وأستاذ، ثم عين مفتشًا بوزارة المعارف، ثم مديرًا للفيوم، ثم رئيسًا فخريًّا للمحكمة المختلطة، واشتهر بأخلاقه العالية، ووطنيته الصادقة، وشجاعته واستقلاله، كان عالمًا واسع الاطلاع، شغوفًا بالعلم والأدب، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديوي إسماعيل في (فبراير سنة ١٨٧٩م)، وكان وقتئذ أستاذًا بالمدرسة الحربية،

وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى[١]، وكان من أكبر أنصار الفقيد ومعضديه، عرفه منذ كان طالبًا بمدرسة الحقوق، وكان واسطة التعارف بينهما نجله فؤاد سليم، صديق مصطفى الحميم، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية، فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه: «إنه الشعلة الوطنية المنتظرة». وقد صحت نبوءته، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره، وظل طول حياته معضدًا ومؤيدًا له في جهاده، وقد حزن الفقيد لوفاته حزنًا عميقًا كان له أثر شديد في انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير.

كتب في هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم بتاريخ (٧ يناير سنة ١٩٠٨م) يقول:

«إني مريض جدًّا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر، وقد بذلت مجهودًا فوق الطاقة لإلقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني». إلى أن قال: «أمَّا صحتي فهي بين اليأس والرجاء، والأطباء مطمئنون الآن، والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع إلى مفاجأة المنون صديقًا لي حميمًا كان من أشد وأكبر نصرائي، وهو المرحوم لطيف باشا سليم».

وكانت وفاته قبيل فجر يوم (٢٨ سنة ١٩٠٧م)، ولم يبلغ الخامسة والخمسين، وقد نعاه مصطفى كامل وهو مريض فقال عنه: «آخانا رحمه الله على صغر سننا، فكان أخًا رءوفًا وصديقًا حميمًا، ومواطنًا محبًّا لبلاده حبًّا لا قدرة لكاتب أن يصفه». وقد انتقلت صداقته للفقيد إلى نجله فؤاد باشا سليم رحمه الله، فكان حافظًا لوده وعهده على مر السنين.

علي بك فخري

من أوائل علماء القانون في النهضة الحديثة، انتظم في سلك المناصب القضائية، وتدرج فيها إلى أن عين رئيسًا لنيابة الإسكندرية الأهلية، فكان بحكم منصبه عضوًا

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا «عصر إسماعيل» ج٢ ص٣٠٢ وما بعدها طبعة سابقة.

بمجلسها البلدي، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقريحة الوقادة والاستقلال في الرأي والغيرة على شئون الوطن، وقد برزت شخصيته الساطعة في المجلس البلدي، وكان يساجل الأعضاء الأوربيين الرأي ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته، فمثل العنصر الوطني في المجلس خير تمثيل، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب، وارتقى في المناصب القضائية فعين قاضيًا بالمحاكم المختلطة، ثم مستشارًا بها، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب، حتى صاروا يرجعون إلى رأيه في المشكلات القانونية، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن أكبر نصرائه. توفي في (شهر يونية سنة ١٩٠٦م)، ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره، وقد نعاه مصطفى كامل في «اللواء» نعيًا مؤثرًا دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية، سماه (فقيد الوطن والبلاد)، ويعد نعيه صفحة حية من التاريخ الوطني، ومن أبلغ ما كتب المترجم، قال: إن الفقيد كان أخًا لنا، نسترشد برأيه، ونعتمد على فكره، ونعتز بوجوده، ونفتخر بعلمه وفضله ووطنيته وحميته، وعواطفه الحية السامية، وإحساساته الراقية، فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحدًا يفدى بآلاف من الرجال، إذا ذكر العلم كان حامل رايته، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له، وإن ذكر العدل كان أكبر مشيد لأركانه، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان إنسانها، وإن ذكرت الوطنية كان مثالها، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها، فكيف لا يكون مأتمه مأتم القطر وبنيه، والأسف على وفاته في كل قلب والحداد على موته في كل دار؟ ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصداقة والإخاء والاتحاد في الرأي والفكر والشعور، وهي أمتن الروابط وأقواها، فعرفنا فيه مصريًّا لا تهزه الحوادث ولا تثبط عزيمته النوائب، ولا تضعف آماله المصائب، يتقد غيره على مصالح وطنه، ويمسي ويصبح وهو مفكر في استقلاله وعزه ونعيمه، إذا تكلم عنه سمعت الوطني الحر الذي امتلأ فؤاده حبًّا لبلاده وحنانًا عليها، كان الفقيد البرهان الحي على كفاءة المصري وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم لأن يخرج النابغين من الرجال. كان رحمه الله على جانب عظيم من

الدعة ورقة الأخلاق، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام في فكره والمجاهرة برأيه مع كل إنسان وأمام كل إنسان، كنا إذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحادثته، وأسف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز، نرتاح لكلام نابغة عالي الفكر، سامي الشعور، طاهر القلب، شريف الميول، ونأسف على حالة الوطن؛ لأن الفقيد مع ما أراد له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة، وأمرها بيدها. إن الفقيد مؤهلًا بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثي روح الحياة والنهوض فيها، فلذلك كان موته مصابًا جسيمًا، مصابًا لنا بالذات نعزى فيه؛ لأننا فقدنا أخًا حقيقيًّا لا يعوض، ومصابًا لكل مصري؛ لأن الوطن فقد بموته واحدًا يشرفه ويرفع قدره ويسلبه بعلم وعمله على همومه ومصائبه الجسام».

على بك فخرى

أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل إلى أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيد وأنصاره جميعهم، وإنما نذكر على سبيل المثال من وعتهم الذاكرة؛ وهم (عدا من ذكرنا): الأمير محمد إبراهيم (انظر: ص١٦٦) الأمير حيدر فاضل، فؤاد بك سليم (باشا)، عمر بك سلطان (باشا)، علي فهمي كامل شقيق الفقيد، إسماعيل بك شيمي، الدكتور محمود بك لبيب محرم، الدكتور صادق رمضان، علي بك حسني المصري، عمر بك لطفي، محمود بك سالم، عبد المجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفي في يناير سنة ١٩٠٤م)، الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق)، مرقص بك حنا (باشا)، رضوان بك شريف، أحمد فائق باشا، حسن باشا حارس، إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين، عبد الحميد صادق باشا رئيس مجلس شورى القوانين، يوسف صديق باشا، الفريق حسن باشا رضوان، الدكتور حسن باشا محمود، محمد بك طلعت بك حرب (باشا)، عزت بك شكري، أحمد بك الصوفاني، عبد اللطيف بك الصوفاني، عبد الحميد بك عمار، عبد الرحيم بك أحمد، أحمد بك يحيى (باشا)، أمين بك يحيى (باشا)، عبد الفتاح بك يحيى (باشا)، حسين بك القرشوللي، مصطفى بك سري، عثمان بك لبيب، محمود أنيس، مصطفى بك نجيب (مؤلف كتاب حمى الإسلام)، عبد الخالق بك ثروت (باشا)، حسين رشدي باشا، محمد بك سعيد (باشا)، حسين بك حسني العمري، عبد الباقي بك العمري، الشيخ عبد العزيز جاويش، الشيخ عبد المجيد اللبان، محمد ماهر باشا، إسماعيل بك صدقي (باشا)، سيد باشا شكري، علي باشا آصف، الدكتور محمود بك ناشد، الدكتور حسين يسري بك، سيف الله باشا يسري، الدكتور إسماعيل صدقي بك، الدكتور محمود عبد الوهاب بك، حسن باشا عاصم، حسين باشا واصف، الشيخ عبد الوهاب النجار، إسماعيل بك حافظ، الدكتور علي بك سلام (الإسكندرية)، مصطفى بك عزت، الأستاذ دافيد حزان، الأستاذ محمد بك توفيق، عبد القادر بك الغرياني، محمد بك

أسعد، محمد بك حسني يكن، عثمان باشا ماهر، عبد العزيز بك فريد، الدكتور أحمد علي، محمود بك حسيب، شمس الدين بك حموده، إسماعيل بك لبيب، محمد بك فهمي حسين، محمود بك أبو النصر، محمد خلوصي بك، عبد الله بك طلعت، إبراهيم أفندي حافظ، يوسف بك ذهني، علي بك حشمت، محمد بك رشوان، الشيخ مصطفى القاياتي، الشيخ محمود أبو العيون، علي بك لهيطة، يوسف بك حافظ، إبراهيم بك حفظي، إسماعيل بك الملواني، محمد عبد اللطيف الصيدلي، الدكتور محمد بك علي دويدار، محمود بك فهمي حسين، الدكتور أحمد فهمي الجهيني، الدكتور نصر فريد بك، الحسيني أفندي العسقلاني، علي بك المنزلاوي، محمود بك الشيشيني، حسن بك خيري (باشا)، محمد توحيد بك السلحدار، محمد بك أحمد الشريف، مصطفى بك الخادم، محمد بك توفيق زاهر، الدكتور عبد العزيز نظمي بك، الأستاذ محمد بك رمضان، محمد علي علوية باشا، إسماعيل أفندي كامل، مصطفى بك رشيد، أحمد بك حجازي، حسن محسن باشا، عثمان بك أبو شنب، حسن بك جمجوم، توفيق بك حموده، حافظ أفندي مصطفى، سعيد بك طليمات، الدكتور السيد بك رفعت، محمد أفندي لمعي المهندس، عبد الخالق مدكور باشا، محمد بك علي دولار، حسن بك حمدي، الدكتور محجوب ثابت، الشيخ محمد رفعت، محمد بك حبيب المهندس، الأستاذ محمود بسيوني (رئيس مجلس الشيوخ الأسبق)، حسن بك نبيه المصري (وكيل مجلس الشوخ الأسبق)، الدكتور أحمد بك السعيد (أسيوط)، الأستاذ محمد كامل مرتجى، أمين بك إسماعيل، الأستاذ حسن عبد المعطي، الأميرالاي محمود بك حلمي إسماعيل، الأميرالاي علي بك إسماعيل، محمود بك محرم رستم، محمد بك لبيب البتانوني، حسن بك رضا، بشارة باشا تقلا، الأستاذ داود بركات، جبرائيل تقلا بك (باشا)، فؤاد بك حسيب، أنطون بك الجميل، حافظ بك المنشاوي، محمد بك فؤاد المنشاوي، يوسف بك المنشاوي، السيد رضوان جلال وأخوه عثمان أفندي جلال (رئيس قلم قضايا السكة الحديد)، علي بك أبو الفتوح (باشا)، محمد أبو الفتوح باشا، إسماعيل بك العسيلي، خليل بك

محمود الفلكي، إسماعيل بك صادق، مصطفى بك الشوربجي (من أعيان بريم)، الشيخ علي الغاياتي، محمد كامل بخاتي بك، محمد أفندي الكلزه، محمود أفندي السخاوي، محمود أفندي علي منصور، الشيخ حسن خفاجي (الإسكندرية)، سينوت بك حنا، عزيز بك خانكي، إلياس بك عوض، سليمان بك العباني، الأستاذ أحمد الصدر، بيومي أفندي محمود، محمود أفندي علي ناصر، الشيخ صالح الشهابي، إبراهيم عبد الواحد، الشيخ محمود عبد الغني، محمد عبد الكريم (سيدي جابر)، حسن أفندي سيف، عبد الله بك محمد الصيدلي، شعبان أفندي خليفة، أحمد أفندي إبراهيم القويضي، محمود أفندي كمال، محمد عبد القادر القط، محمد أفندي عبد اللطيف التاجر، عبد الرازق أفندي الحبشي، صالح بك القاضي، السيد أفندي الشنيطي، إبراهيم أفندي أنيس، محمد أفندي بسيوني طنش، علي أفندي أبو النظر، محمد أفندي رشدي، السيد أفندي الخطيب، محمد أفندي مرسي النحاس، عبد اللطيف أفندي الصاوي، اليوزباشي محمود لطفي الأزميرلي، شيخ العرب سليمان علي مطيريد إلخ.

تلاميذه

نقصد بتلاميذه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية (ولو إلى وقت محدود)، وهم أيضًا لا سبيل إلى حصرهم؛ ولكننا نذكر من تحضرنا أسماؤهم، وسنرتبهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم؛ وهم:

أحمد حلمي المحرر باللواء، مصطفى بك النحاس (باشا)[1]، الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا)، محمد بك حافظ رمضان (باشا)، علي بك الشمسي (باشا)، أمين أفندي عمر، سيد أفندي علي، الأستاذ محمد صادق عنبر، الأستاذ حسين فهمي

(١) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الأهلية، يفخر باعتناق مبادئ الحزب الوطني، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلًا لنادي بالمدارس العليا، وفي سنة (١٩١٨م) اختاره الوفد المصري عضوًا فيه باعتباره ممثلًا للحزب الوطني هو والدكتور حافظ بك عفيفي (باشا).

بهجت، محمود خيري باشا، الأستاذ محمد لطفي جمعة، أمين بك الرافعي، الأستاذ أحمد وجدي، عبد الرحمن بك الرافعي، الدكتور عبد الحميد سعيد، الأستاذ أحمد وفيق، الدكتور حافظ عفيفي باشا، مصطفى بك الشوربجي، محمد زكي علي باشا، الأستاذ عبد المقصود متولي، الدكتور عبد الغفار متولي، إبراهيم بك راتب، الدكتور سلطان بك، الدكتور منصور بك فهمي، الأستاذ محمود عزمي، الأستاذ أحمد فايق، الدكتور عبد الحميد أبو هيف بك، عبد السلام بك ذهني، محمد بك صادق جلال، إمام واكد، حامد بك العلايلي، الأستاذ حسن حسني، محمد بك فؤاد حمدي، الدكتور أحمد فؤاد، عبد الملك بك حمزة، إسماعيل بك كامل، إسماعيل بك شيرين، حسين بك شيرين، كمال بك الخشن، الأمير أفندي العطار، أحمد بك فهمي القطان، محمد علي المهندس، عوض بك البحراوي، عبد الرحمن عزام باشا، الدكتور سيد سليمان عبد الحميد باشا، أحمد مختار المهندس، الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، الأستاذ علي فهمي خليل، الأستاذ حسن شافعي الجيزاوي، الدكتور منصور رفعت، إبراهيم بك دسوقي أباظة، عبد الخالق عطية، الدكتور شفيق منصور، الأستاذ محمود خيرت، الدكتور عبد العزيز عمران، الأستاذ عبد الوهاب البرعي، الدكتور يحيى الدرديري، عمر بك عارف، الدكتور منصور القاضي، الدكتور حسين همت، الدكتور أحمد توفيق، الأستاذ إسماعيل مظهر، الأستاذ محمود العمري، علي بك مراد، هاشم بك مهنا، الأستاذ محمد عرارجي، الأستاذ سليمان حافظ، أحمد أفندي رمضان زيان، محمد أفندي فهمي بشير، الشيخ عبد الباقي نعيم سرور، الأستاذ محمود رمزي نظيم، محمد أفندي عوض جبريل، الأستاذ عبد الوهاب علي، عبد الله أفندي حسن عوض، الدكتور منصور القاضي، المرحوم علي أفندي صادق (الإسكندرية)... إلخ.

معاصروه من الشعراء والأدباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التي بثها مصطفى كامل أثر كبير في تطور الشعر في مصر، واتجاهه إلى الناحية الوطنية التي لم يطرقها الشعراء من قبل، وبدا الاتجاه في

قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم؛ فإن قرائحهم، بتأثير دعوة الفقيد، قد فاضت بالشعر الوطني، وسارت النهضة الأدبية إلى الأدبية إلى جانب النهضة الوطنية، تغذيها وتؤيدها، وتسجل حوادثها، وتعبر عن آلامها وآمالها، وردد الشعر صدى الحركة السياسية في الحوادث الهامة.

حافظ إبراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواي لقيت صداها في شعر حافظ إبراهيم، فأنشأ في (يولية سنة ١٩٠٦م) قصيدته المشهورة عن الحادثة، ندد فيها بسياسة الاحتلال، وقال في مطلعها مخاطبًا المحتلين:

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا

خَفِّضوا جيشكم وناموا هنيئًا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

وإذا أعوزتكم ذات طوق[1] ... بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقُنا الأجيادا[2]

لا تظنوا بنا العقوق ولكن ... أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

لا تقيدوا من أمة بقتيلٍ ... صادت الشمس نفسه حين صادا[3]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهَّالُنا بأمر وجئتم ... ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا

---

(١) ذات طوق: أي الحمامة.

(٢) يريد بالأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد، والأجياد الأعناق جمع جيد.

(٣) أي لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول (انظر: ص٢٠٧)، وأقاد الحاكم القاتل القتيل؛ أي قتله به قودًا.

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصًا أردتم أم كيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوسًا أصبتم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التفـ ... ـتيش عادت أم عهد (نيرون) عادا
كيف يحلو من القوي التشفي ... من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا
إنها مثلة تَشف عن الغيـ ... ـظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم ... إنما يكرم الجواد الجوادا

وقد كان الفقيد شديد الإعجاب بشعر حافظ وأدبه، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة (١٩٠١م)، قرظه في اللواء[1] تقريظًا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل، وأسهب في الثناء عليه حين عرب كتاب «البؤساء» سنة (١٩٠٣م).

قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجبًا بوطنية مصطفى كامل، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين، وظهر إعجابه به وتأييده له بكل جوارحه في قصيدته التي ألقاها يوم (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦م) في احتفال مدرسة مصطفى كامل، تعليقًا على خطبة الفقيد؛ قال في مطلعها:

سمعنا حديثًا[2] كقطر الندى ... فجدِّد في النفس ما جددا
أضحى لآمالنا منعشًا ... وأمسى لآلامنا مرقدا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحببة إلى الفقيد:

فديناك يا شرق لا تجزعن ... إذا اليوم ولَّى فراقب غدا
فكم محنة أعقبت منحة ... وولَّت سِراعًا كرجْع الصدى

(١) عدد ٩ أكتوبر سنة (١٩٠١م).
(٢) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

فـــلا يُئـــسنَّك قيـــل العـــداة ... وإن كـــان قـــيلا كحـــز المُـــدى[١]

أتـــودع فيـــك كنـــوز العلـــوم ... ويمـــشي لـــك الغـــرب مـــسترفدا[٢]

وتُبعـــث في أرضـــك الأنبيـــاء ... ويـــأتي لـــك الغـــرب مـــسترشدا

وتقـــضي عليـــك قـــضاة الـــضلال ... طـــوال الليـــالي بـــأن ترقـــدا؟

أتَـــشْقى بعهـــد ســـما بـــالعلوم ... فأضـــحى الـــضعيفُ بهـــا أيِّـــدا[٣]

إذا شـــاء بَـــزَّ الـــسُّها سره ... وأدرك مـــن جَرْيـــه المقـــصِدا[٤]

وإن شـــاء أدنـــى إليـــه النجـــوم ... فنـــاجى المجـــرَّة والفرقـــدا[٥]

وإن شـــاء زعـــزع شُـــمَّ الجبـــال ... فخـــرت لأقدامـــه سُـــجَّدا

وإن شـــاء شـــاهد في ذَرَّة ... عـــوالم لم تَحْـــى فيهـــا ســـدى

زمـــان تـــسخر فيـــه الريـــاح ... ويَغْـــدو الجـــمادُ بـــه مُنـــشِدا[٦]

وتَعْنـــو الطبيعـــة للعـــارفين ... بمعنـــى الوجـــود وسر الهـــدى

إذا مـــا أهـــابو أجـــاب الحديـــد ... وقـــام البخـــار لـــه مُـــسْعِدا[٧]

وطـــارتْ إلـــيهم مـــن الكهربـــاء ... بـــروق عـــلى الـــسلك تطـــوي المـــدى

أيَجْمـــلُ مـــن بعـــد هـــذا وذاك ... بـــأن نـــستكين وأن نجْمُـــدا؟

---

(١) المدى بالضم جمع مدية، وهي السكين.

(٢) مسترفدًا: أي يطلب الرفد وهو العطاء.

(٣) الأيد -بتشديد الياء-: القوي من الأيد بمعنى القوة.

(٤) بزه: سلبه، والسها الكوكب المعروف؛ أي إذا شاء ذو العلم سلب من السهار سره وأظهره للناس.

(٥) المجرة والفرقد: نجوم في السماء.

(٦) يشير إلى الطيران والفونوغراف.

(٧) مسعدًا: أي معينًا.

وهـا أمـة (الـصُّفر) قـد مهـدت ... لنـا الـنهج فاسـتبقوا المـوردا[١]

وقال فيها مخاطبًا الشباب:

فيـا أيهـا الناشـئون اعملـوا ... عـلى خـير مـصر وكونـوا يـدا
سـتُظهِر فـيكم ذوات الغيـوب[٢] ... رجـالًا تكـون لمـصر الفِـدا
فيـا ليـت شـعري مـن مـنكم ... إذا هـي نـادت يلبـي النـدا

وقال في ختامها مخاطبًا مصطفى كامل:

لـك الله يـا (مـصطفى) مـن فتـى ... كثـير الأيـادي كثـير العـدا
إذا مـا حمـدتُكَ بـين الرجـال ... فأنـت الخليـق بـأن تحمـدا
سيُحـصِي عليـه سـجل الزمـان ... ثنـاءً يخلـد مـا خُلِّـدا
ويهتـف باسـمك أبناؤنـا ... إذا آن للـزرع أن يُحـصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ، وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظًا يقر لمصطفى كامل بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجني ثمار هذه الحركة، وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة (١٩١٨م)، وجهر به في رثائه للمغفور له محمد فريد في (ديسمبر ١٩١٩م)، إذ قال مناجيًا روح فريد:

قُـلْ (لـصب النيـل[٣]) إن لاقيتـه ... في جـوار الـدائم الفـرد الـصمد
إن مـصر لاتنـي عـن قـصدها ... رغـم مـا تلقـى وإن طـال الأمـد

(١) أمة الصفر: أي اليابان.
(٢) ذوات الغيوب: أي الأقدار التي في عالم الغيب.
(٣) يريد مصطفى كامل.

جئـــت عنهـــا أحمـــل البـــشرى إلى (أول البـــانين) في هـــذا البلـــد
فاســـترح واهنـــأ ونـــمْ في غِبطـــةٍ قـد بـذرت الحـبَّ والـشعب حَـصَد

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى كامل بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما بذر، ورأى حافظ سنة (١٩١٩م) هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة (١٩٠٦م).

واقتبس حافظ من روح مصطفى، وأيده في دعوته الوطنية، وردد صداها في شعره، اعتبر ذلك في قصيدته عن حادثة دنشواي (ص٣٨٧) وقصيدته في حفلة مدرسة مصطفى كامل (ص ٣٨٨)، ثم قصيدته في استقبال اللورد كرومر عند عودته إلى مصر في (أكتوبر سنة ١٩٠٦م) بعد حادثة دنشواي، قال:

قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر
بعد حادثة دنشواي

قـصر الـدوبارة[1] هـل أتـاك حـديثنا فالـشرق رِيـع لـه وَضـجَّ المعـرب
أهـــلًا بـــساكنك الكـــريم ومرحبًـــا بعـــد التحيـــة إننـــي أتعتـــب
نقلـت لنـا الأسـلاك عنـك رسـالة باتـــتْ لهـــا أحـــشاؤنا تتلهـــب

إلى أن قال:

إنْ ضـــاقَ صـــدرُ النيـــل عـــما هالـــه يـوم الحـمام[2] فـإن صـدرك أرحـب
أو كلـــما بـــاح الحـــزين بأنـــة أمست إلى معنى التعصب تنسب[3]
رفقًـــا عميـــد الـــدولتين بأمـــة ضـاق الرجـاء بهـا وضـاق المـذهب

(١) يريد قصر المعتمد البريطاني.
(٢) يوم الحمام يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.
(٣) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي.

رفقًا عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضنَّ الفقيرُ بقوته ... وسخا بمهجته على من يغصب
في (دنشواي) وأنت عنا غائب ... لَعِب القضاءُ بنا وعزَّ المهرب
حَسِبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا في صيدهن وصوَّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خَلَّيتهم والقاسطون[1] بمرصدٍ ... وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شُنِقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحَّبوا[2]
يتحاسدون على المِمات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان: هذا عاجلٌ متنمِّرٌ ... يرنو، وهذا آجل يترقب
والمستشار مكاثر برجاله ... ومعاجز ومناجز ومحزب[3]
يختالُ في أنحائها متبسمًا ... والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعةٍ فأردوا خامسا ... هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه في أنفس ... يجنى بمعرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا ... للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ على (بند) إذا ولى القضا ... رفقًا يهش له القضاء ويطرب

---

(١) القاسطون الظالمون.

(٢) أهلوا ورحبوا: أي قالوا أهلًا ومرحبًا.

(٣) يريد الكابتن «متشل» مستشار وزارة الداخلية، وكان يشرف على تنفيذ الحكم. ومعاجز: من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزًا. وحزب: أي جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد.

وقصيدته في شكوى مصر من الاحتلال، وقد نشرت في (يناير سنة ١٩٠٧م) قال:

قصيدة حافظ في شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذَّبَتْ ... حواشيه حتى بات ظلمًا منظما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصري حُرًّا منعما
أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْدًا وسخرة ... فإني رأيتُ المنَّ أنكى وآلما
عملتم على عِزِّ الجماد وذلنا ... فأغليتم طينًا وأرْخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتًا ولا جادها السَّما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا في وفرة المال لم تُفدْ ... متاعًا ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال – والخفض وارف- ... قليلٌ إذا حلَّ الغلاء وخيَّما[1]

وقصيدته التي قالها عند استقالة اللورد كرومر في (إبريل سنة ١٩٠٧م) قال فيها:

قصيدة حافظ في استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذي كان شامخًا ... وشيع لنا البحرَ الذي كان مزبدا

إلى أن قال:

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) معهدا

(١) الخفض: سعة العيش؛ يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغني شيئًا.

وأنـــك أخـــصبت الـــبلاد تعمُّـــدا ... وأجـدبت في مـصر العقـول تعمُّـدا
قـــضيت عـــلى أم اللغـــات وإنـــه ... قـضاءٌ علينـا أو سـبيلٌ إلى الـردى[1]
ووافيـــت والقطـــران في ظـــل رايـــة ... فمازلـت (بالـسودان) حتـى تمـردا[2]
فطـاح كـما طاحـت (مـصوع) بعـده ... وضـاعت مـساعينا بـأطماعكم سـدى
حجَبْتَ ضـياء الـصحف عـن ظُلماتـه ... ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)[3]
وأودعـــت تقريـــر الـــوداع مغـــامزًا ... رأينـــا جفـــاء الطبـــع فيهـــا مُجـــسدا
غمـــزت بهـــا ديـــن النبـــي وإننـــا ... لنغضب إن أغضبت في القبر (أحمدا)
يناديـــك أيـــن النـــابغون بعهـــدكم ... وأي بنـــاء شـــامخ قـــد تجـــددا
فـما عهـد (إسـماعيل) والعـيش ضـيق ... بأجدب من عهد لكم سال عَسْجدا
يُناديـــك وليـــت الـــوزارة هيئـــة[4] ... من الـصُّم لم تسمع لأصواتنا صدى
فلـيس بهـا عنـد التـشاور مـن فتـى ... أبي إذا مـــا أصـــدر الأمـــر أوردا
بربـــك مـــاذا صـــدنا ولـــوى بنـــا ... عـن القـصد إن كـان الـسبيل ممهـدا؟
أشرت بـــرأي في كتابـــك لم يكـــن ... سـديدًا ولكـن كـان سـهمًا مـسددا
وحاولـت إعطـاء الغريـب مكانـة ... تجـر علينـا الويـلَ والـذل سرمـدا
فيـا ويـل مـصر يـوم تـشقى بنـدوةٍ ... يبيـتُ بهـا ذاك الغريـب مُـسَوَّدا[5]
ألـــم يكفنـــا أنـــا سُـــلِبنا ضـــياعنا ... عـلى حـين لم نبلـغ مـن الفِطنـة المـدى

(١) أم اللغات: أي اللغة العربية، ويشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.
(٢) وافيت: أي جئت، والقطران: أي مصر والسودان.
(٣) ظلماته: أي ظلمات السودان، وحجبت المؤيد: أي منعته عن دخول السودان.
(٤) وزارة مصطفى فهمي.
(٥) يشير إلى مشروع اللورد كرومر في إنشاء مجلس تشريعي مختلط.

وزاحمنا في العيش كل ممارس ... خبير وكنا جاهلين ورُقَّدا
وما الشركاتُ السودُ في كل بلدة ... سوى شركٍ يلقى به من تَصَيدا

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد في قصيدته التي ألقاها على قبره يوم تشييع جنازة الزعيم، وقصيدته في حفلة الأربعين (وقد نشرناهما ص٢٨٩ و٢٩٠).

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم (١١ فبراير سنة ١٩٠٩م) في الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي؛ قال فيها:

قصيدة حافظ في الذكرى الأولى للفقيد

طُوفوا بأركان هذا القبر واستلموا[1] ... واقضوا هنالك ما تقضى به الذممُ
هنا جنانٌ تعالى الله بارئه ... ضاقت بآماله الأقدارُ والهممُ
هنا فم وبنان لاج بينهما ... في الشرق فجرٌ تحيي ضوءه الأمم
هنا فمٌ وبنانٌ طالما نثرا ... نثرًا تسيرُ به الأمثالُ والحِكَمُ
هنا الكمي[2] الذي شادتْ عزائمه ... لطالب الحق ركنًا ليس ينهدم
هنا الشهيد، هنا ربُّ اللواء، هنا ... حامي الذِّمار، هنا الشهم الذي علموا
يا أيها النائم الهاني بمضجعه ... ليَهْنَكَ النومُ لا همٌّ ولا سَقم
بَاتَتْ تسائلنا في كل نازلة ... عَنْكَ المنابرُ والقِرْطَاسُ والقلم
تركْتَ فينا فراغًا ليس يَشْغَلُه ... إلا أبيٌّ ذكي القلب مضطرم
منفَّر النوم[3] سَبَّاقٌ لغايته ... آثاره عَمَمٌ، آمالُه أممُ
إني أرى وفؤادي ليس يكذبني ... روحًا يَحُفُّ بها الإكبارُ والعِظَم

(١) استلم القبر: قبَّله أو لمسه بيده.
(٢) الشجاع.
(٣) منفر النوم: أي مسهد.

أرى جـلالًا، أرى نـورًا، أرى ملكًـا، ... أرى محيَّـــا يحيينـــا ويبتـــسم
الله أكـــبر، هـــذا الوَجْـــهُ أعْرِفُـــه ... هـذا فتـى النِّيـل، هـذا المُفْـرد العَلَـم
غُـــضوا العيـــونَ وحَيُّـــوه تحيتـــه ... مـن القلـوب إذا لم تُـسْعِد[1] الكلـم
وأقـسموا أن تـذودوا عـن مبادئـه ... فـنحن في موقـف يحلـو بـه القـسم
لبيـك، نحـن الألى حركـت أنفـسهم ... لمـا سـكنت ولمـا غالـك العَـدَمُ
جئنـا نُـؤدِّي حـسابًا، عـن مواقفنـا ... ونـستمد ونـستَعْدِي[2] ونحـتكم
قيـل اسـكُتوا فـسكَتْنَا ثـم أنطقنـا ... عـسفُ الجفَـاة[3] وأعـلى صـوتنا الألم
قـد اتهمنـا ولمـا نطلـب جَلَـلا ... إن الـضعيفَ عـلى الحـالين مُـتهم
قـالوا لقـد ظَلَمُـوا بـالحق أنفـسهم ... والله يَعْلَـمُ أن الظـالمين هُـمُ
إذا سَـكَتْنا تَنَـاجَوْا: تلـك عَـادتهم ... وإنْ نَطقنـا تَنَـادَوا: فتنـة عَمَـم
قـد مَـرَّ عَـامٌ بِنَـا والأمْـرُ يَخْزُبُنَـا[4] ... آنًـا، وآونـة تَنْتَابُنـا الـنِّقَمُ
فالنـاسُ في شِـدَّةٍ والـدهر في كَلَـب[5] ... والعيشُ قد حَارَ فيه الحاذقُ الفهم
وللـسياسة فينـا كـل آونـة ... لـونٌ جديـدٌ وعهـدٌ لـيس يُحْـترم
بينـا نـرى جَمْرَهـا تُخـشى ملامـسه ... إذا بـه عنـد لَمْـس المُـضْطَلِي فحـم
تـصغى لأصـواتنا طـورًا لتخـدعنا ... وتـارة يزدهيهـا الكـبر والـصَّمَم
فمـن مُلاينـة أسـتارها خـدع ... إلى مُـصَالبة أسْـتَارُها وهـم
مـاذا يريـدون؟[1] لا قـرَّت عيـونهم ... إن الكنانـة لا يُطْـوَى لهـا عَلَـم

---

(١) أسعده: أعانه.

(٢) نستمد: نطلب المدد، ونستعدي نستنصر.

(٣) يريد بالجفاة المحتلين.

(٤) حزبه الأمر: اشتد عليه.

(٥) الكلب: الشدة.

كـم أمـة رغبـتْ فيهـا فـما رسـخت ... لهـا عـلى حولهـا[٢] في أرضـها قَـدَم
مـا كـان ربـك، رب البيـت، تاركهـا ... وهـي التـي بحبـالٍ منـه تَعْتـصم
لبيـك إنَّـا عـلى مـا كنـت تعهـده ... حتـى نَـسُود وحتـى تـشهد الأمـم
فـيعلم النيـل أنَّـا خـيرُ مـن وَرَدُوا ... ويـستطيل اختيـالًا ذلـك الهـرم

إلى أن قال:

يـا أيهـا الـنشء، سِـيروا في طريقتـه ... وثـابروا، رضي الأعـداءُ أو نقمُـوا
فكلكـم (مـصطفى) لـو سَـارَ سيرته ... وكلكـم (كامـل) لـو جـازه[٣] الـسأم
قـد كـان لا وانيًـا يومًـا ولا وكـلًا[٤] ... يـستقبل الخطـب بـسامًا ويقـتحم
وأنـت يـا قـبر قـد جئنـا عـلى ظمـأ ... فجـدْ لنـا بجـواب، جـادك الـديم[٥]
أيـن الـشبابُ الـذي أودعـت نـصرته ... أني الخـلال -رعـاك الله - والـشيم؟
ومـا صـنعت بآمـال لنـا طُويـت ... يـا قـبر فيـك وعفـى رسـمها القـدم؟
ألا جـوابٌ يـروي مـن جوائحنـا؟ ... مـا للقبـور إذا نُودِيـت تجـم[٦]
نـم أنتَ، يكفيك ما عانيت من تعب ... فـنحنُ في يقظـةٍ والـشملُ ملتـئم
هـذا (لـواؤك) خَفَّـاق يظللنـا ... وذاك شخصك في الأكباد مُرْتسم[٧]

(١) يريد المحتلين.
(٢) الحول: القوة.
(٣) جازه: أي جاوزه.
(٤) الوكل: العاجز الذي يكل الأمر إلى غيره.
(٥) الديم: جمع ديمة السحاب.
(٦) وجم يجم: سكت عن الكلام.
(٧) توفي حافظ إبراهيم «شاعر النيل» في (يولية سنة ١٩٣٢م).

شوقي

أمَّا شوقي أمير الشعراء، فقد كان صديقًا حميمًا للفقيد، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان؛ هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذاك في دولة الشعر والبيان، وكان الفقيد يصف شوقي بأنه «الغدير الصافي في ألفاف الغاب، يسقي الأرض ولا يبصره الناظرون». وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في اللواء، وفي ذلك يقول في مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف في الورى بقصائدي وتجل فوق النيرين مكاني

وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه أن يرثيه، وفي ذلك يقول:

وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من أدْمُعي وسَرَائري وجناني

وكان لدعوة مصطفى كامل أثرها في شعر شوقي؛ فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة (١٩٠٢م) إلى الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد علي (ص١٦٧)، لبى شوقي نداءه، وأنشأ في (مايو سنة ١٩٠٢م) قصيدة من غرر قصائده؛ تخليدًا لهذا العيد[1]، قال فيها مناجيًا روح محمد علي:

قصيدة شوقي
في الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد علي

عَلَمٌ أنتَ في المشارق مُفرد لك في العالمين ذكرٌ مُخَلد
حَبَّذا دولة وملك كبير أنت باني ركنيهما يا محمد
ولواءٌ في البرِّ والبحر يُعْطى مظهر الشمس في الوجود وأزيد

(١) نشرها «اللواء» في عدد ٢٢ مايو سنة (١٩٠٢م).

تُـدْخِلُ الأرض فيـه قطـرًا فَقُطـرًا ... مـدخل النـاس في شريعـة أحمـد
تمـلأ الأرض صـافنات وتجـري ... لـك في البحـر كـل بـرج مُـشَيَّد
هكـذا فلينـل سـماء المعـالي ... مـن سعى في الـورى لمجد وسؤدد
همـة تبتنـي الممالـك شـما ... ء ورأي يـسوسهن مُـسَدد
وثبـاتٌ في الحادثـات وعـزمٌ ... مثـل ريـب الزَّمَـان لا يَـتَرَدد
تـضع الـسيف موضـعًا يرْتَـضِيه ... ومـن البـأس مـا يـذمُّ ويحمـد
وتَـصُون النـوال عـن حُـسْن صـنع ... لـك ينـسى ونعمـة لـك تجحـد
لا تبـالي بحاسـد وعـدوٍ ... آيـة الفـضل أن تُعَـادي وتحـسد
همـة الفـاتحين حكـمٌ وقهـرٌ ... ولـك الهمـة التـي هـي أبعـد
لـيس مـن يفـتح الـبلاد لتـشقى ... مثـل مـن يفـتح الـبلاد لتـسعد
علمـت مـصر والحجـاز وأرض الـ ... نـوب والـشام أن عهـدك عَـسجد
أنـت إن أحـصى النوابـغ في الملـ ... ـك كـريم الثنـا عـلى الـدهر أوحـد
أيـدتهم قرابـة وقبيـل ... وأرى الله وحـده لـك أيـد
فتـولاك والليـالي حُبـالى ... وتـولاك والحـوادث تولـد
ورمـى عنـك والملـوك رمـاة ... نصفهم واجدون والنصف حُسَّد[1]
ركـن مـصر أقمـت بعـد انقـضاض ... أمـة جُمعـت وأمـر توحـد
يـا مُـديم الرقـاد في خـير مرقـد ... قـم فـما حـل قبلـك الأرض فرقـد
وانظـر الـشرق كيـف أصـبح يهـوى ... وانظـر الغـرب كيـف أصـبح يـصعد
وتأمـل ممالكًـا وبـلادًا ... لمـس الـدهر عقـدها فتبـدد
كنـت تحميـه[1] والـسيوفُ عـوار ... مـن لـه اليـوم بالحـسام المجـرد؟

(١) واجدون: غاضبون.

ينشر النور والحضارة فيه ... كلما زود الشعوب تزود
وترى الأمر بين قلب ذكي ... في يديه وبين جفن مُسهد
يا عصام الملوك هل كنت تسلو ... عن عروش الملوك أو كنت تزهد
صغَّر الجاهلون بالنفس مسعا ... ك وعذر النفوس فيه ممهد
ما سمعنا بقاتح سل سيفًا ... يأخذ الملك حده ثم أغمد
حالة سامها (الأمين) أخوه ... وأمور بها (أمية) يشهد
ثبت في فتنة الحجاز إليهم ... حين أخمدتها ولم تك تخمد
وأتاهم بعذره لك بيت ... كلما جندوا إلى الحرب جند
يحفظ الملك ملك مصر عليهم ... جوهرًا فوق تاجهم يتوقد
زعموا الشرق من فعالك قلقًا ... وأرى الشرق في يمينك أقعد[٢]
جئته بالحياة والنور والتمـ ... ـدين والرأي والقنا والمهند
كان بين الورى بركن فعزز ... ت بثان والركنُ بالركن يشتد
شرفًا في الزمان آل علي ... جدكم سيد الملوك المسود
ارجعوا في العلا إليه وروموا ... نهجه، نهجه الذي كان أقْصد
ألبسوه كما كساكم فخارًا ... كلما رثت الثياب تجدد
واملأوا مسمع الزمان حديثًا ... كدوي الخضم أرغى وأزبد
إنما الناس أمة لا يموتو ... ن وأخرى تمر مرًّا وتنفد
وأرى جدَّكم على الدهر حيًّا ... خالد الذكر والثناء المردد

(١) أي الشرق.
(٢) أقعد: أي أمكن وأثبت.

قصيدة شوقي في وداع اللورد كرومر

وقال سنة (١٩٠٧م) ضمن قصيدته المشهورة في وداع اللورد كرومر:

أيـــامكم أم عهـــد إســـماعيلا ... أم أنـــت فرعـــون يـــسوس النـــيلا
أم حـــاكمٌ في أرض مـــصر بـــأمره ... لا ســـائلًا أبـــدًا ولا مـــسئولا
يـــا مالكًـــا رق الرقـــاب ببأســـه ... هـــلَّا اتخـــذت إلى القلـــوب ســـبيلا
لمـــا رحلـــت عـــن الـــبلاد تـــشهدت ... فكأنـــك الـــداءُ العيـــاء رحـــيلا
أوسَـــعْتنا يـــومَ الـــودَاع إهانـــة ... أدب لعمـــرك لا يـــصيب مثـــيلا

إلى أن قال:

أنـــذرتنا رقًّـــا يـــدوم وذلـــة ... تبقـــى وحـــالًا لا تـــرى تحـــويلا
أحـــسبت أن الله دونـــك قـــدرة ... لا يملـــك التغيـــير والتبـــديلا
الله يحكـــم في الملـــوك ولم تكـــن ... دول تنازعـــه القـــوى لتـــدولا
فرعـونُ قبلـك كـان أعظـم سـطوةً ... وأعـــز بـــين العـــالمين قبـــيلا
اليـوم أخلفـت الوعـود حكومـة ... كنـــا نظـــن عهودَهَـــا الإنجـــيلا
دخلـت عـلى حكـم الـوداد وشرعـه ... مـــصرًا فكانـــت كالـــسلال دخـــولا
هـــدمت معالمهـــا وهـــدت ركنهـــا ... وأضـــاعت اســـتقلالها المـــأمولا

وقال:

قـــد مـــدَّ إســـماعيل قبلـــك للـــورى ... ظـــل الحـــضارة في الـــبلاد ظلـــيلا
إن قـــيس في جـــود وفي سرف إلى ... مـــا تنفقـــون اليـــوم عـــدَّ بخـــيلا
أو كـــان قـــد صرع المفـــتش مـــرة ... فلكـــم صرعـــت بدنـــشواي قتـــيلا
لا تـــذكر الكربـــاج في أيامـــه ... مـــن بعـــد مـــا أنبـــت فيـــه ذيـــولا

قصيدته في ذكرى دنشواي

وقال سنة (١٩٠٧م) عن (ذكرى دنشواي) بعد مرور عام على حادثتها في سبيل طلب العفو عن سجنائها[١]:

يـا دنـشواي عـلى ربـاك سـلامُ ... ذهبـت بـأنس ربوعـك الأيـامُ
شـهداء حكمـك[٢] في الـبلاد تفرقـوا ... هيهـات للـشمل الـشتيت نظـام
مـرت علـيهم في اللحـود أهلَّـة ... ومـضى علـيهم في القيـود العـام
كيـف الأرامـلُ فيـك بعـد رجالهـا ... وبـأيِّ حـال أصـبح الأيتـام
عـشرون بيتًـا أقفـرت وانتابهـا ... بعـد البـشاشة وحـشة وظـلام
يـا ليـت شـعري في الـبروج حمـائم ... أم في الـبروج منيـة وحمـام
(نـيرونُ) لـو أدركـت عهـد كرومـر ... لعرفـت كيـف تنفـذ الأحكـام
نـوحي حمـائم دنـشواي ورَوِّعـي ... شـعبًا بـوادي النيـل لـيس ينـام
إن نامـت الأحيـاء حالـت بينـه ... سـحرًا وبـين فراشـه الأحـلام
متوجـع يتمثـل اليـوم الـذي ... ضـجَّتْ لـشدة هولـه الأقـدام

وتدل مرثاة شوقي على مبلغ ما يكنه للفقيد من الإعجاب والإكبار، وتعد قصيدته أعظم مرثاة في تاريخ الأدب العربي، وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته في قصائده؛ فمن ذلك قصيدته التي نظمها بمناسبة ذكراه السابعة بعنوان (شهيد الحق)، تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة (١٩٢٤م) من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى الفقيد فوفَّاه حقه؛ قال في مطلعها:

---

(١) «اللواء» عدد ٢٧ يولية سنة (١٩٠٧م).

(٢) أي حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواي.

قصيدة شوقي في ذكرى الفقيد سنة (١٩٢٥م)

إلام الخلْـفُ بينكمـو إلامـا؟ وهـذي الـضجةُ الكـبرى علامـا؟
وفـيم يكيـدُ بعـضكمو لـبعضٍ وتُبـدون العـداوة والخـصاما؟
وأيـن الفـوز؟ لا مـصر اسـتقرت عـلى حـالٍ ولا الـسودان دامـا

إلى أن قال:

ولينـا الأمـر حزبًـا بعـد حـزب فلـم نـك مـصلحين ولا كرامـا
جعلنـا الحمـك توليـة وعـزلا ولم نَعْـدُ الجـزاء والانتقامـا
وسُـمْنا الأمـر حـين خـلا إلينـا بـأهواء النفـوس فـما اسـتقاما

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شـهيد الحـق قـم تـره يتـيما بـأرض ضُـيِّعت فيـه اليتـامى
أقـام عـلى الـشفاه بهـا غريبًـا ومـرَّ عـلى القلـوب فـما أقامـا[1]
سـقِمتَ فلـم تبـت نفـس بخـير كـأن بمهجـة الـوطن الـسقاما
ولم أر مثـلَ نعـشك إذ تهـادى فغطَّـى الأرضَ وانـتظم الأنامـا
تحمـل همـة، وأقـل دينًـا وضـم مـروءة وحـوى زمامـا
ومـا أنـساك في العـشرين لمـا طلعـت حيالهـا قمـرًا تمامـا
يُـشارُ إليـك في النـادي وتُرمَـى بعينـي مـن أحـب ومـن تعـامى
إذا جئـت المنـابر كنـت (قُـسًّا) إذا هـو في عكـاظ عَـلا الـسناما
وأنـت ألـذُّ للحـق اهتـزازًا وألطـف حـين تنطقـه ابتـساما
وتحمـل مـن أديـم الحـق وجهًـا صراحًـا لـيس يتخـذ اللـساما

(١) أي أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب.

أتـــذكرُ قبـــل هـــذا الجيـــل جـــيلًا ... ســـهرنا عـــن معلمهـــم ونامـــا
مِهـــارُ الحـــق بغـــضنا إلـــيهم ... شـــكيم القيـــصرية واللجامـــا[1]
لـــواؤك كـــان يـــسقيهم بجـــام ... وكـــان الـــشعر بـــين يـــدي جامـــا[2]
مـــن الوطنيـــة اســـتبقوا رحيقًـــا ... فضَـــضْنا عـــن معتقهـــا الختامـــا
غرســـنا كرمهـــا فزكـــا أصـــولا ... بكـــل قـــرارة وزكـــا مُـــداما
جمعتهمـــو عـــلى نـــبرات صـــوت ... كـنفخ الـصور حركـت الرجامـا[3]
لـك الخطـب التـي غـص الأعـادي ... بـــسورتها وســـاغت للنَّـــدامى[4]
فكانـــت في مرارتهـــا زئـــيرًا ... وكانـــت في حلاوتهـــا بغامـــا[5]
بـــك الوطنيـــة اعتـــدلت وكانـــت ... حـــديثًا مـــن خرافـــة أو منامـــا
بنيـــت قـــضية الأوطـــان منهـــا ... وصـــيَّرت (الجـــلاءَ) لهـــا دعامـــا

قصيدة في ذكرى الفقيد سنة (١٩٢٦م)

وله قصيدة ألقيت في الاحتفال بذكرى الفقيد في (فبراير سنة ١٩٢٦م) قال:

لم يَمُـــت مـــن لـــه أثـــر ... وحيـــاةٌ مـــن الـــسِّير
أدعـــه غائبًـــا وإن ... بعـــدت غايـــة الـــسفر
آيـــب الفـــضل كلـــما ... آبـــت الـــشمس والقمـــر[6]

(١) مهار: جمع مهر، والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها بطش الاحتلال وجبروته.
(٢) الجام: الإناء من الفضة.
(٣) الرجام: القبور.
(٤) السورة: الحدة والشدة، والندامى جمع نديم، والمراد بهم الأنصار والأصدقاء.
(٥) البغام: صوت الظبي.
(٦) أي يعود للفقيد فضل ويتجدد له ذكر كلما آبت الشمس وعاد القمر.

رُبَّ نـــــورٍ مُـــــتَمِّم ... قـــد أتانـــا مـــن الحُفَـــر
إنـــما الميـــت مـــن مـــشى ... ميـــت الخُـــبْر والخَـــبر
مـــن إذا عـــاش لم يُفـــد ... وإذا مـــات لم يـــضر
لـــيس في الجـــاه والغنـــى ... منـــه ظـــل ولا ثمـــر
قَـــبُحَ العـــزُّ في القـــصـ ... ـــور إذا ذَلَّـــت القُـــصُر
أعْـــوز الحـــق ذائـــد ... وإلى (مـــصطفى) افتقـــر
وتمنـــت حِياضـــه ... هبـــة الـــصارم الـــذكر
الـــذي يُنْفـــذ المـــدى ... والـــذي يركـــب الخطـــر
أيهـــا القـــوم عَظمـــوا ... واضـــع الأس والحجـــر
اذكـــروا الخُطبـــة التـــي ... هـــي مـــن آيـــة الكـــبر
لم يـــر النـــاس قبلهـــا ... منـــبرًا تحـــت محتـــضر
لـــستُ أنـــسى لـــواءه ... وهـــو يمـــشي إلى الظفـــر
حـــشر النـــاس تحتـــه ... زُمَـــرًا إثرهـــا زمـــر
وتـــرى الحـــقَّ حولـــه ... لا تـــرى البـــيض
كلـــما راح أو غـــدا ... والـسمر[1] نفـخ الـروح في الـصور
يـــا أخـــا الـــنفس في الـــصبا ... لـــذة الـــروح في الـــصغر
وخلـــيلا ذخرتـــه ... لم يقـــوَّم بمـــدخر
حـــال بينـــي وبينـــه ... في فجاءاتـــه القـــدر
كيـــف أجـــزى مـــودَّة لم ... يَـــشُب صـــفوها كـــدر
غـــير دمـــع أقولـــه ... قـــل في الـــشأن أو كثـــر

(١) البيض: السيوف، والسمر: الرماح.

وفـــــــؤاد مُعَلَّـــــــل ... بالخيـــــالات والـــــذكر
لم يـــــنم عنـــــك ســـــاعة ... في الأحاديـــــث والـــــسمر
قـــم تـــر القـــوم كتلـــة ... مثـــل مَلْمُومـــة الـــصخر
جـــددوا ألفـــة الهـــوى ... والإخـــاء الـــذي شـــطر
لـــيس للخُلـــف بيـــنهم ... أو لأســـبابه أثـــر
ألفـــتهم روائـــح ... غاديـــات مـــن الغـــير
وصـــحوا مـــن منـــوم ... وأفـــاقوا مـــن الخـــدر[1]
أقبلـــوا نحـــو حَقهـــم ... مـــا لهـــم غـــيره وطـــر
جَعَلـــوه خليَّـــة ... شَرَعـــوا دونهـــا الإبـــر
وتَوَاصَـــوا بخطـــةٍ ... وتَـــدَاعَوا لمـــؤتمر
وقـــصارى أولي النهـــى ... يتلاقَـــوْنَ في الفكـــر
آذنونـــا بموقـــفٍ ... مـــن جـــلال ومـــن خطـــر
نـــسمع الليـــث عنـــده ... دون آجامـــه زأر
قـــل لهـــم في نـــديهم[2] ... مـــصر بالبـــاب تنتظـــر[3]

إسماعيل صبري

وكان الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبري صديقًا صدوقًا للفقيد، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى. كان محافظًا للإسكندرية سنة (١٨٩٦-١٨٩٩م)، وأراد مصطفى كامل أن يلقي بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت الحكومة إليه

(١) الخدر: الكسل.
(٢) يريد البرلمان.
(٣) توفي أحمد شوقي أمير الشعراء في ١٤ أكتوبر سنة (١٩٣٢م).

أن يمنع إقامة الاجتماع الذي أعد لإلقاء الخطبة؛ بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأَبَى على الحكومة ما أرادت ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام[١].

ولما عين وكيلًا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩م) ظل على مودته للفقيد، وكان يخرج في غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضي معه الوقت الطويل. ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له؛ في الوقت الذي كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به؛ وإلى ذلك يشير شوقي في رثائه لإسماعيل صبري[٢] إذ يقول:

ويح الشباب وقد تخطر بينهم ... هل مُتِّعوا بتمسُّح وطواف
لو عاش قُدوتهم ورب (لوائهم) ... نكس (اللواء) لثابت وقَّاف[٣]
فلكم سقاه الود حين وداده ... جرب لأهل الحكم والأشراف

وتجد في شعر إسماعيل صبري انسجامًا مع روح الفقيد؛ قال في قصيدة له وجهها إلى الخديوي عباس الثاني يوم عيد جلوسه سنة (١٩٠٨م) يدعو إلى الدستور:

سدِّد سهام بالشورى يحط ... بك منه في ظُلَم الحوادث فيلقُ
واسبقْ به واضربْ به وافتحْ به ... ما شئت من باب أمامك يغلق

وقال فيها يذكر حادثة دنشواي والعفو عن مسجونيها:

وأقَلْتَ عثرة قرية حكم الهوى ... في أهلها وقضى قضاءٌ أخرقُ

---

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ الأديب «أحمد الزين» في مقدمته لديوان إسماعيل صبري باشا، ص٣٢.

(٢) توفي إسماعيل باشا صبري سنة (١٩٢٣م).

(٣) قدوتهم: أي قدوة الشباب، ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء؛ أي لو عاش مصطفى كامل حتى شهد وفاة إسماعيل صبري لنكس اللواء حدادًا عليه.

إنْ أنَّ فيهـــا بـــائسٌ ممـــا بـــه ... أو رنَّ جاوبـــه هنـــاك مُطـــوقُ[١]
وا رحمتـــا لجنـــاتهم مـــاذا جنـــوا ... وقـضاتهم مـا عـاقهم أن يتقـوا[٢]
مـا زال يقـذي كـل عـين مـا رأوا ... فيهـا ويـؤذي كـلَّ سـمع مـا لقـوا
حتـى حكمـت فجـاء حكمـك آيـة ... للنـــاس طـــي صـــحيفة تتـــألق
نزلـتْ ترفـرف حـول كاتـب نـصها ... زمـــرًا ملائكـــةُ الـــرضى وتحلـــق
شـكرتك مـصرُ عـلى سـلامة بعـضها ... شـكرًا يغـرِّب في الـورى ويـشرِّق
ذكـرتْ لـك الـصفح الجميـل ولم تـزل ... ترمـــي إلى أمـــر أجـــل وترمـــق[٣]
قـــانون دنـــشواي ذاك صـــحيفة ... تُـــتلى فترتـــاع القلـــوب وتخفـــق
هـــل يُرتجـى صـــفو ويهـــدأ خـــاطر ... والمـــوت حـــول نـــصوصها يترقـــرق
ومـــضاجع القـــوم النيـــام أواهـــل ... بمعـــذب يـــردى وآخـــر يرهـــقُ
لـــن تبلـــغ الجرحـــى شـــفاء كـــاملًا ... مـــا دام جارحهـــا المهنـــد يـــبرق
فـاحكم بغـير العنـف واكـسر سـيفه ... فـــالحلم أجمـــلُ والمكـــارم أليـــقُ

وقال سنة (١٩٠٨م) يندد بسياسة مصطفى فهمي باشا حين سقطت وزارته:

عجبتُ لهم قالوا «سقطت» ومن يكن ... مكانـك يـأمن مـن سـقوط ويـسلم
فأنـت امرء ألـصقت نفسك بـالثرى ... وحرمـت خـوف الـذل مـا لم يحـرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة ... عـلى الـصخر لم تُـصدع ولم تـتحطم[٤]

(١) رن الرجل رنينًا: صاح ورفع صوته بالبكاء. والمطوق: السجين.
(٢) قضاتهم: أي قضاة المحكمة المخصوصة. (انظر: ص٢٠٠).
(٣) يريد الدستور.
(٤) أي أن مصطفى فهمي باشا كان في منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

وقد جزع لوفاة الفقيد جزعًا شديدًا، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير، ووقف على قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يلقي البيت الأول منها وهو:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وتدل قصيدته في حفلة تأبينه (ص٢٧٧) على مبلغ حبه وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به وشدة حزنه عليه، فجاءت آية في البلاغة ورقة التعبير، وكأن كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم.

خليل مطران

وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته في قصيدته في حفلة الأربعين (ص٢٩٢)، وقد نشرها في ديوانه، وصدرها بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشرق في رجله المفرد، وبطله الأوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة: إن في هذا الديوان الذي أختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، وداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم».

وظل خليل مطران (رحمه الله) على تعاقب السنين، يحفظ عهد صديقه العظيم، ويشيد بذكراه، وله في سنة (١٩٣٣م) قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفًا رائعًا للنهضة القومية التي كونت حافظًا وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها؛ قال فيها:

طـــرأت حالـــة تـــيقظ فيهـــا ... لـــدعاة الهـــدى ضـــمير الـــسواد[١]
فـــإذا (حـــافظ) وقـــد بـــث مـــا في ... نفـــسه مـــن تجهـــم واربـــداد
وبـــدا للمنـــى الجلائـــل فيهـــا ... أفـــق واســـع المـــدى لارتيـــاد
مـــا تجـــلى نبوغـــه كتجليـــه ... وقـــد هـــبَّ (مـــصطفى) للجهـــاد
يـــوم نـــادى الفتـــى العظـــيم قلبـــي ... مـــن نبـــا[٢] قبلـــه بـــصوت المنـــادي
ووري[٣] ذلـــك الـــشعور الـــذي كـــا ... ن كمينًـــا كالنـــار تحـــت الرمـــاد
فتـــأتي بعـــد القنـــوط الـــدجُوجي[٤] ... رجـــاء للـــشاعر المجـــواد
مـــس منـــه الـــسواد فانبجـــست نـــا ... ر ونـــور مـــن طـــي ذاك الـــسواد
أكـــبر الـــدهرُ وثبـــة وثبتهـــا ... مـــصر مفتكـــة مـــن الأصـــفاد
وثغـــاء[٥] غـــدا هـــزيمًا[٦] فـــألقى ... رُعْبـــه في مـــرابض الآســـاد
مـا لـذي أخـرج الـشجاعة مـن حيـث ... طوتهـــا قـــرونُ الاســـتبداد
وجَـــلا غُـــرة الـــصلاح فلاحـــت ... تزدهـــي مـــن غياهـــب الإفـــساد
فـــإذا أمـــةٌ أبيـــةٌ ضـــيم ... مـــا لهـــا غـــير حقهـــا مـــن عَتـــاد
نهـــضت فجـــأة تنـــافح في آ ... نٍ عـــدوين أسرفـــا في اللـــداد
أجنبيًّـــا ألقـــى المـــراسي حتـــى ... تقلـــع الراســـيات في الأطـــواد
وهوانًـــا كـــأنما طبـــع الـــشعب ... عليـــه تقـــادم الإخـــلاد

(١) يريد الجمهور.
(٢) نَبَا: تجافى وتباعد.
(٣) وري الزند: خرجت ناره.
(٤) المظلم.
(٥) الثغاء: صوت الشاة والمعز.
(٦) الهزيم: صوت الرعد.

حلبـــة يُعـــذرُ المقـــصر فيهـــا ... والخـــواتيم رهـــن تلـــك المبـــادي
لـــيس تغيـــيرُ مـــا بقـــوم يـــسيرًا ... كيـــف مـــا عُـــودوه مـــن آمـــاد
غـــير أن الإيـــمان كـــان حليفًـــا ... لقلـــوب الطليعـــة الأنجـــاد
فاســـتعانوا بـــه عـــلى مـــا ابتغـــوه ... غـــير بـــاغين مـــن بعيـــد المـــراد

إلى أن قال:

بعـــــد وثـــــبٍ عنيـــــف ... وارتـــدادٍ في الـــشوطِ غـــب ارتـــداد
ســـاور الأمـــة الـــتردد والتـــا ... ث[1] عليهـــا في الـــسيروجه الرشـــاد
لا تـــسل يومـــذاك عـــن جلـــد القـــا ... دة في مُلتقـــى الخطـــوب الـــشداد
كلـــــما ازدادت أبـــــو إ ... لا كفاحًـــا وعـــزمهم في ازديـــاد
يبـذلون القـوى وفـوق القـوى غـير ... مبـــالين أنهـــا لنفـــاد
و(الـــزعيمُ الأبـــرُّ) أطيـــبهم نفـــسًا ... عـــن الـــنفس في صراع العـــوادي
هـــل ينجـــي شـــعبًا مـــن اليـــأس إلا ... حـــدث مـــن خـــوارق المعتـــاد
مـــصطفى مـــصطفى بحـــسبك إن يـــذ ... كـــر فـــداء أن كنـــت أول فـــاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحييت ... قومًـــا بـــذاك الاستـــشهاد
دب فـــيهم روح جديـــد لـــه مـــا ... بعـــده في القلـــوب والأخـــلاد[2]
تنقـــضي الحادثـــات بعـــدك والـــرُّو ... ح مقـــيم فـــيهم عـــلى الآبـــاد
كـــاد يـــوم شـــيعت فيـــه يـــريهم ... لمحـــة مـــن جـــلال يـــوم المعـــاد
صـــدروا عنـــه بالتعـــارف فـــيما ... بيـــنهم وهـــو قـــوة الأعـــداد[3]

(١) التاث عليه الأمر: اختلط والتبس.
(٢) العقول.
(٣) أي قوة الاتحاد.

واستشفوا لبأسهم فيه سرا ... كم تحامى أن يدركوه الأعادي
هذه مصر الفتية هبتْ ... في صفوف فتية للذياد
رجل مات مخلفًا منه جيلًا ... رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار ... بعد طول الخمود والإخماد
تخذت عبقرية الشعر فيه ... سلمًا للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظًا) من الحظ أوجًا ... زاد منه العلياء كل مراد[1]

وكان الفقيد يعجب أيضًا بقصائد أحمد محرم ويشيد بها في اللواء، ويسميه (نابغة البحرية)، وبقي أحمد محرم على صلته بالفقيد ووفائه له ولذكراه، وكذلك كان معجبًا بشعر أحمد الكاشف، ثم بشعر أحمد نسيم.

وقد أدرك في بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ علي الليثي، وأحبه حب الوالد لولده، ولمح فيه النبوغ والعبقرية، وكان يقول له: «إنك أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفي، وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك».

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني، كان حين وفاة الزعيم طالبًا بمدرسة المعلمين، وقد رفت أسبوعًا من المدرسة جزاء له خطبة وطنية ألقاها تلك السنة في حفلة الطلبة بدار التمثيل العربي، وبدأت كتاباته الوطنية تظهر في صحف الحزب الوطني عقب وفاة الزعيم.

أصدقاؤه وأنصاره في الشرق والغرب

أولهم مدام «جولييت آدم» فهي التي عرفته بأقطاب السياسة في فرنسا، وأيدته في جهاده بما تراه مبسوطًا في فصول هذا الكتاب.

(١) توفي خليل مطران «شاعر القطرين» في (يونية سنة ١٩٤٩م).

ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بيرلوتي) الأديب الفرنسي المشهور، كانت بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة، وكان لوتي يمد الاتيندار إجبسيان بالمقالات الممتعة.

ومن أصدقائه الشعراء شكري غانم الشاعر اللبناني الشهير، نبغ في الشعر الفرنسي ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنترة) التي مثلت في فرنسا ومصر وحازت استحسانًا كبيرًا، وقد خطب الفقيد في الاحتفال الذي أقيم تكريمًا له بالقاهرة في (يناير سنة ١٩٠٦م) خطبة بليغة، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه، وصرح شكري غانم بأنه هو الذي وجهه إلى وضع رواية (عنترة) بالفرنسية لكي تكون فيها دعاية للبطولة العربية في الأوساط الفرنسية المثقفة.

وكان له في أوربا أصدقاء وأنصار عديدون، نذكر منهم الكولونل مارشان بطل حادثة فاشودة وإرنست جوديه، وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق، والمسيو بللتان وزير بحريتها السابق، ولهما في الايتندار إجبسيان مقالات عدة، والمسيو تارديو الذي صار رئيس وزارة فرنسا، والكونت روشفور، وكان معظم مديري الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده.

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقًا لطلعت حرب باشا، وامتدحه في لواء (١٠ يناير سنة ١٩٠٠م) لمناسبة ظهور كتابه في تربية المرأة، ووصفه بأنه «الكاتب الفاضل محمد أفندي طلعت حرب». ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه في لواء (١٠ يولية سنة ١٩٠٥م) تحت عنوان (مصري فاضل) ما يأتي:

«من الأشياء التي تسر كل مصر يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدًا على كفاءة المصري في الأعمال الجسيمة وتقدير الأوربيين له حق قدره،

فعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقًا هو أول مصري نقدمه اليوم للقراء انتخب مديرًا لشركتين عظيمتين، هما شركة العقارات المصرية، وشركة كوم امبو، خلفًا لحضرة عاداه بك مديرهما السابق. وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين، ومؤسسيهما هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو أرنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصري الجليل عظيمة، كما لا شك في أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقي والفلاح بما أوتيه حضرة مديرهما الجديد من سمو الإدراك وسعة الاطلاع في المسائل المالية، فنهنئ الشركتين به، ونسال العلي القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله».

فكأن الفقيد كان يستشف ما وراء الحجب، ويلمح في الأفق ما كان لطلعت حرب باشا رحمه الله من الشأن العظيم في نهضة مصر الاقتصادية، وأنه سيتولى زعامتها في ميدان الاقتصاد والمال، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب.

مصطفى كامل ومصطفى فهمي

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين وعلى الوزراء عمومًا، ولا عجب فمصطفى فهمي كانت سياسته تمثل الخضوع التام للاحتلال الأجنبي، ولم يكن من أنصار الاحتلال فحسب؛ بل كان من المخلصين له، العاملين على تحقيق مآربه، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثًا له في كتابه «مصر الحديثة» سنة (١٩٠٥م) تغنى فيه بفضل الاحتلال، قال فيه: «إن عمل إنجلترا في مصر لهو عمل مجيد يشهد لها بالفخار، انظر إلى حالة مصر سنة (١٨٨٢م) وما صارت إليه الآن سنة (١٩٠٥م)، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء، إن التغيير كان سريعًا واسع المدى لدرجة أني في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل: هل أنا في منام... وفي الواقع لا توجد في العالم حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا، إنك تسألني إذا كانت مصر

نستطيع يومًا أن تتحرر من إنجلترا، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل، أما ما يمكنني أن أؤكده الآن فهو أننا لا نستطيع ذلك في الوقت الحاضر، فإن عملها لم يتم بعد ولا يزال تمامه بعيدًا، لقد شيدت دعائمه القوية ولكن لا يزال البناء غير تام يبشر بالآمال الزاهرة، على أنه فيم يحق لها أن نشكو إنجلترا؟ إننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا وهنائنا. انظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور، إنها كانت منذ عشرين سنة لا تساوي شيئًا، والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات، فماذا تكون قيمتها لو جلت إنجلترا عن مصر؟».

مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه فى سفح الأهرام

وترى إلى يساره مدام جولييت آدم. فمحمد بك فريد. فعلى فهمى كامل بك وإلى يمينه مدام يونج. فحسين واصف باشا

فهذه الأقوال تعبر عن روح مصطفى فهمي باشا، وكل أعماله في الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة؛ فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له، فكان بديهيًّا أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية.

مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة (١٨٩٠م) كان سعد زغلول لا يزال المحامي النابه (سعد أفندي زغلول)، كان منصرفًا إلى أعماله في المحاماة. ثم عين سنة (١٨٩٢م) قاضيًا (مستشارًا)، فانقطع إلى قضائه بمحكمة الاستئناف.

وكانت علاقة مصطفى بـ«سعد» ودية حتى سنة (١٩٠٦م)، حدثني فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم، وهناك عرف مصطفى كامل إذ كان طالبًا بمدرسة الحقوق، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال؛ على أن علاقته بمصطفى كامل ظلت ودية كما أسلفنا، وحين صدر اللواء سنة (١٩٠٠م)، كان سعد زغلول لا يزال مستشارًا بمحكمة الاستئناف، وشقيقه أحمد فتحي بك زغلول رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية، ولما ظهر كتاب «المحاماة» لأحمد فتحي زغلول بك كتب عنه الفقيد في عدد (١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠م) مقالة افتتاحية بتوقيعه أثنى فيها ثناء كبيرًا على الكتاب وصاحبه، وليس بخفي أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل في ذاته على التقدير والود الكبير؛ قال في مقالته:

«لست ممن يزفون المدائح زفًّا أو يبجلون الناس حبًّا في مرضاته، وطمعًا في استرضائهم؛ ولكني أكون مقصرًا أمام الله والناس إذا لم أشكر أمام الملأ كله مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضال أحمد بك فتحي زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية... إلخ».

ويبدو وده لسعد مما كتبه اللواء في عدد (٧ فبراير سنة ١٩٠٦م) عن مرضه، قال تحت عنوان (شفاه الله): «انحرفت صحة حضرة الأصولي المفضال سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية، وقضت بإجراء عملية جراحية بسيطة له، وقد تمت على غاية ما يرام، وأخذت صحته تتحسن تحسنًا عظيمًا، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدين الذين يتوافدون كل يوم على منزله لعيادته، نسأل الله له

الشفاء التام والصحة والعافية، حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة». فهذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد. ونشر اللواء في (٢٨ فبراير) نبأ شفائه في غبطة وسرور.

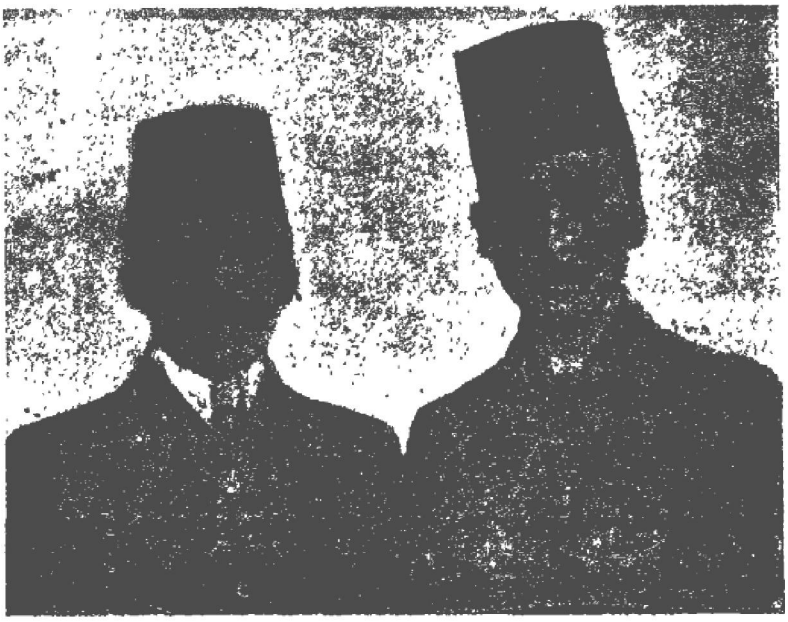

مصطفى كامل وبيير لوتي

على أن علاقة الفقيد بـ«فتحي باشا زغلول» قد انقطعت وانقلبت إلى خصومه شديدة بعد أن اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواي؛ إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة (انظر: ص٢٠٨) وهو الذي كتب الحكم بقلمه، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية، ورقي بعد الحكم وكيلًا لوزارة الحقانية، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة، وسماه (قاضي دنشواي) وقال به في منزل سعد باشا يوم (٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦م) أن حكمه في قضية دنشواي «يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة».

من ذلك ترى أن صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن؛ فإذا مدح مدح بحق، وإذا انتقد انتقد بحق، غير متأثر بصلات شخصية أو مآرب ذاتية، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية.

ولما عين سعد باشا وزيرًا للمعارف في (أكتوبر سنة ١٩٠٦م) امتدح صفاته، وأمل الخير على يده، وكتب في لواء (٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦م) تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول: «لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديوي المعظم في سراي التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيرًا للمعارف المصرية، فارتاح سمو الخديوي لهذا الطلب لما يعهده في سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القويمة، وإن ما يعرفه الناس في أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولًا، وفي القضاء ثانيًا، يحملهم جميعًا على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصريًّا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصبًا لا عمل فيه، وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة التامة في النظارات، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في وزارة المعارف، هل يكون كبقية الوزراء -أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب- أم يكون وزيرًا اسمًا وعملًا ويحيي سلطة الوزراء المصريين؟ اللّهمَّ إننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكًا باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقادًا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كبارًا كانوا أو صغارًا، فإذا بقي سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان -وهو ما نعتقد- أملنا خيرًا كبيرًا للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة «الحياة المصرية» إلى الوزارة؛ على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف تقديرًا لعلمه وإعلانًا لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية، واتباعه لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة، فإن السياسة تقضي قبل كل شيء بأن

يكون الوزير وزيرًا حقيقة، وأن يكون العامل عاملًا مؤديًا لوظيفته، متمتعًا بكل حقوقه، لا أن يكون آلة في يد الموظف الإنجليزي، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان علي مبارك باشا والفلكي باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم في هذا القطر خدمات خالدة، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة، والرأي المتبع، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك، وأن يكون في مستقبله كما هو في حاضره وكما كان في ماضيه، الرجل المستقل الذي لا يخدعه منصب ولا مال».

ولكن الفقيد أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشورع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيرًا للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلي لها) فإنه لم يكد يتولى وزارة المعارف في (٢٨ أكتوبر) حتى وقف اجتماع اللجنة، وكانت تجتمع في داره، ثم اجتمعت يوم (٣٠ نوفمبر) بدار حسن بك جمجوم أحد أعضائها، وحضر سعد باشا الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة؛ بدعوى أن كثرة أعماله في الوزارة لا تسمح له بالاشتراك في مشروع الجماعة، مع أن تعيينه وزيرًا للمعارف كان أدعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم)، وكتب الفقيد في هذا الصدد يقول: «كيف يهتم المستشار في الاستئناف بمشروع علمي ولا يهتم به ناظر المعارف؟». وقال في مقالة أخرى: «إن تخليه يظهر للملأ الخطر الذي يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة داخل فيها، واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها».

وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقًا لرغبة الاحتلال؛ لكي يحبط المشروع، وقد أصابه الفتور والركود فعلًا بعد انسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين «بإيعاز من الاحتلال أيضًا» حركة إنشاء الكتاتيب،

واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها، ومعارضة بذلك مشروع الجامعة، وبقي المشروع راكدًا حتى دبت فيه الحياة حين تولى رياسة لجنته الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد) في سنة (١٩٠٨م).

واشتد الفقيد في نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة في (مارس سنة ١٩٠٧م) جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية، وكان وقتئذ باللغة الإنجليزية، فاعترض سعد باشا -وكان وزيرًا للمعارف- على هذا الاقتراح، وألقى خطبة طويلة في هذا الصدد، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الإنجليزية قائلًا: «إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعًا لشهوتها؛ ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة». وقال: «إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية، وشرعنا فيه فعلًا، فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى؛ لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة إلخ؛ على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الأغلبية العظمى، وقد كانت خطبته دفاعًا عن سياسة الاحتلال في التعليم؛ لأن الاحتلال هو الذي أحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأي العام».

وكتب مصطفى كامل مقالًا في الاتيندار إجبسيان عرَّبه اللواء في عدد (٩ مارس سنة ١٩٠٧م) تحت عنوان (فشل وزير)، قال فيه:

«إنَّ الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمي باشا) الأمين على وحيه، الخادم لسياسته، وفهموا أيضًا لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة: إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطني، في حين أن كل شيء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله إلى

السلطة، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلًا عظيمًا في الجمعية العمومية، ولو كان وزيرًا أوربيًّا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال في الحال؛ ولكنه وزير في مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته؛ إلا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل؛ ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف».

وزاد في انتقاده إياه امتداح اللورد كرومر له في خطبة الوداع التي ألقاها قبل رحيله عن مصر، على حين أنه طعن في المصريين جميعًا ورماهم بنكران الجميل.

وصفوة القول أن موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان وديًّا حتى انسحابه من لجنة مشروع الجامعة، ثم تحول إلى موقف انتقاد نزيه وخصومه شريفة، تبعًا لما اقتضاه الدفاع عن الصالح الوطني العام.